

العربية الفصحى ولهجاتها بين الأسطورة والواقع: قراءة في آراء اللغويين المحدثين
وعبد الرحمان الحاج صالح.

Classical Arabic and Its Dialects Between Myth and Reality: A Review of the
Views of Modern Linguists and Abdul Rahman
Al-Haj Saleh.

د. نبيلة قريني* - Guerini Nabila

جامعة 8 ماي 1945 قالمة (الجزائر)

guerini.nabila@univ-guelma.dz

تاريخ النشر: 2026/06/07

تاريخ القبول: 2026/03/06

تاريخ الاستلام: 2025/03/20

ملخص:

تعدّ العلاقة بين الفصحى ولهجاتها من أهم المسائل اللغوية التي أسالت حبر اللغويين المحدثين من مستشرقين وعرب؛ إذ يذهب أكثرهم إلى التسليم مطمئنين إلى أنهما تنتمي إلى مستويين لغويين متميزين، فيهما من الاختلافات ما يجعل العلاقة بينهما متباعدة من الكل المستويات اللغوية: الصوتية والصرفية والتركيبية، ويهتمون القدامى بإغفال التنبيه على هذه الاختلافات. بله التنبيه عليها، مع ما يستتبع ذلك من انتقادات مست جوانب عديدة في الفكر النحوي العربي. ليأتي الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح بردود علمية تضعف ذلك الرأي، وتعيد الاعتبار لجهود القدامى وآرائهم في المسألة. ويسعى المقال إلى تتبع آراء المحدثين في علاقة الفصحى ولهجاتها، مع رصد ردود عبد الرحمان الحاج صالح في المسألة. كلمات مفتاحية: العربية الفصحى، اللهجات، الأسطورة، الواقع، اللغويون المحدثون، المستوى اللغوي

Abstract:

The relationship between Classical Arabic and its dialects is one of the most important linguistic issues that ignited a rich debate and reflection among modern Arab and Orientalist linguists. Most of them tend to recognise two distinct linguistic levels that have differences that make the relationship between them dissimilar from all linguistic, phonetic, morphological, grammatical and syntactic ones. They accuse the ancients of neglecting to notice these differences, even to warn about them with the consequent criticisms that affected many aspects of Arab grammatical thought.

Professor Abdul Rahman al-Hajj Saleh came up with scientific responses that weakened this view and reconsider the efforts of the ancients and their views on the problem.

The article seeks to follow the views of the modernists on the relationship between the Classical Arabic and its dialects, while detecting the responses of Abdul Rahman Al-Hajj Saleh on the problem.

Keywords: Classical Arabic; Dialects; Myth; Reality; Modern Linguists; linguistic level.

1. مقدمة:

لعلّه من طبائع المجتمعات الإنسانية أن يتخذ أصحاب كل لغة في استعمالهم لها منحنيين: الأول يمثل لغة خاصة بمستوى عالٍ من الأداء والانتقاء، تكون لغة عالية تستخدم في المناسبات المخصوصة، والثاني: لغة عامة تتوزع على السنة عامة الناس في حياتهم العادية، وتعاملاتهم اليومية.

ولم تشدّ اللغة العربية عن هذا الإطار العام الذي تنتظم وفقه اللغات الإنسانية؛ إذ مُيّز منذ أقدم عصورها بين عربية فصحي، وبين لهجات موزعة على السنة عامة العرب بتعدد قبائلهم.

وإذا كان الإجماع واقعاً على هذه الحقيقة الإنسانية التي تصدق على اللغة العربية؛ فإن الاختلاف محصّل بين اللغويين المحدثين في طبيعة العلاقة التي تربط الفصحى ولهجاتها؛ إذ يذهب أكثرهم إلى اعتبارهما ينتميان إلى مستويين لغويين متمايزين، لكل مستوى خصائصه الصوتية والصرفية والتركيبية، وانفردت ثلّة منهم - إن لم نقل عَلم واحد منهم وهو الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح بحسب ما وقفنا عليه من آراء - بخلاف ما أقرته الأغلبية، وإنكار ذلك الانفصال اللغوي بين الفصحى ولهجاتها، واعتبارهما بمستوى لغويّ موحد الخصائص، وإن كان بينهما من الفروق مالا يرقى إلى اعتبار كل واحد منهما مستوى لغويّاً مستقلاً عن الآخر.

ومن هاته الجدليّة، جاء مقالنا محاولة للإجابة عن تساؤل رئيس مؤدّاه: ما حقيقة القول بوجود لغة أدبية مشتركة بإزاء

لهجات عربية متباينة الخصائص؟

وتفرعت عنه تساؤلات جزئية، أهمّها:

- ما تفسير المحدثين لطبيعة العلاقة بين الفصحى ولهجاتها؟

- ما تقديرهم لآثار هذا الخلط المنهجي في الدراسات اللغوية والنحوية التراثية؟

- ما تفسير عبد الرحمان الحاج صالح لطبيعة العلاقة بين الفصحى ولهجاتها؟

- ماهي أدلته في تضعيف مذهب أكثر اللغويين المحدثين، وترجيح رأيه؟

قد جاء مقالنا موسوماً بـ "العربية الفصحى ولهجاتها بين الأسطورة والواقع: من وجهة نظر اللغويين المحدثين

ورأي عبد الرحمان الحاج صالح"، وسار عموماً وفق الضبط المنهجي الآتي: مقدّمة، الفصحى ولهجاتها من منظور اللغويين القدامى، ماهية اللغة الأدبية المشتركة ولهجاتها من منظور اللغويين المحدثين، منشأ القول بوجود مستويين لغويين متباينين في اللغة العربية، آثار الخلط بين اللغة الأدبية واللهجات في دراسات القدامى من وجهة نظر اللغويين المحدثين، أبعاد القول بوجود لغة أدبية مشتركة مقابل اللهجات، والخلط بينها في الدراسات اللغوية والنحوية، ويعقب هذا تفصيل في موقف عبد الرحمان الحاج صالح، والإفاضة في عرض أدلته، لتكون الخاتمة محصّلة لأهم ما وقف عليه المقال من نتائج.

وبعد التّوسّع في عرض جزئيات المقال، خلصنا إلى نتائج أهمّها: ترجيح رأي عبد الرحمان الحاج صالح في الإقرار بالوحدة اللغويّة بين الفصحى ولهجاتها استناداً إلى ما قدّمه من أدلّة بسط القول في أكثر من مئة صفحة تحليلاً ومقارنة واستدلالاً على أسس علميّة دقيقة.

2. الفصحى ولهجاتها من منظور اللغويين القدامى:

بدأت عناية اللغويين القدامى بلغات العرب منذ أن بدأ اللحن يشيع في أوساط حواضر الدولة الإسلامية بتأثير الأعاجم الذين اعتنقوا الإسلام وحاولوا اكتساب اللسان العربي، فانبرى جمع من اللغويين لجمع لغات العرب من الفياضي وبوادي شبه الجزيرة، وأفردوا لها مؤلفات عديدة لدراساتها وتصنيفها. وكانت تلك مادة رئيسة استند إليها النحاة في استقراء قواعد النحو، وتقييد أحكامه.

وقد اصطلح القدامى على تسمية ما انفردت به كل قبيلة من منطوق بـ "اللغة"، ووسموا كل منطق بالظاهرة الصوتية التي تشيع على ألسنة أهل تلك القبيلة، فتحدثوا لنا عن: تلتة بھراء، وكسكسة ربيعة، وعجرفية ضبة، وعنعة تميم¹، وكشكشة أسد، وما إلى ذلك من اللغات، وعدّوها لغات مذمومة، وفي مقابل ذلك نصّوا على أن لغة قريش أفصح لغات العرب قاطبة، وهي التي تباعدت عن الاتصاف بهذه الألقاب المذمومة، وخلت من مستبشع اللغات ومستبشع الألفاظ. وفي ذلك يقول ابن فارس (395 هـ): «أجمع علماؤنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم ونحاهم أن قريشا أفصح ألسنة العرب وأصفاهم لغة»².

وتذكر المراجع أن العرب لم تكن تنسب هاته الألقاب للغاتها في الجاهلية وإنما قيل: إن المسؤول عن تلقيب كل لغة بلقب معيّن هو عربي من قبيلة "جرّم"، وذلك في مجلس معاوية بن أبي سفيان، وأقدم أخبار هذا المجلس يرويه الجاحظ (255 هـ) فيقول: «وقال معاوية يوماً: من أفصح الناس؟ فقال قائل: قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات، وتيامنوا عن كسكسة بكر، ليست لهم غمغة قضاة ولا طمطامنية حمير، قال: ومن هم؟ قال: قريش، قال: فممن أنت؟ قال: من جرم، قال: اجلس»³.

ثم شاعت هذه الألقاب، وتداولها اللغويون في كتبهم ومصنّفاتهم، وأفاضوا في عرضها، وتحديد أصلها، وإن اختلفوا في ذلك بعض الاختلاف.

وعلى الرغم من تفصيل اللغويين في ألقاب اللغات وتباين درجات فصاحتها، إلّا أنهم لم يعرضوا لتفاصيل أكثر من مثل وجود مستويين لغويين متمايزين في العربية؛ إذ سمّوا ما درج عليه منطق كل قبيلة "لغة"، ومن ذلك لغة قريش -التي عدّوها أعلى لغات العرب فصاحة- وساؤوا بين هاته اللغات في التقعيد، ما يحيل على أن كانت بمستوى لغوي واحد حسب القدامى على تعدد النصوص اللغويّة التي مثلتها.

3. ماهية اللغة الأدبية المشتركة ولهجاتها من منظور اللغويين المحدثين:

يتفق أكثر اللغويين المحدثين على أن نصوص المدونة اللغوية العربية التراثية تتراوح بين مستويين لغويين متمايزين في الأداء، تتباين خصائصهما اللغوية في المستويات الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية إلى حدّ الانفصال أحياناً، وهذان المستويان هما:

أولهما: العربية الفصحى والتي يصطلحون عليها باللغة الأدبية المشتركة، وتمثلها نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والشعر، ويضاف إليها الفنون الأدبية الثرية التي كانت معروفة زمن الفصاحة من مثل الأمثال والحكم والخطب.

وثانيهما: مستوى اللهجات، وتمثلها ما توزع على ألسنة القبائل العربية من سكان شبه الجزيرة في كلامهم اليومي العادي، وتلحق بها القراءات القرآنية على اعتبار ارتباط نشأتها بمهاته اللهجات

ويذهب اللغويون العرب المحدثون في تفسير طبيعة هذه اللغة الأدبية المشتركة مذهبين:

الأول: أن هاته اللغة إنما هي لغة قريش، التي تهيأ لها من العوامل -لا سيما الدينية والاقتصادية والثقافية - ما جعلها أفصح لغات العرب، وأكثرها انتشارا على ألسنة عامة العرب والأعراب، وبها نظمت الأشعار وألقيت الخطب في مختلف القبائل العربية. وممن ذهب هذا المذهب الأستاذان: علي عبد الواحد وافي⁴، وصبحي الصالح⁵.

الثاني: يذهب إلى أن اللغة الأدبية المشتركة هي مزيج من لهجات العرب على تعددها، تلاقحت وأخرجت لنا هذا النموذج اللغوي، الذي يعد أفصح مستوى لغوي. وممن رأى هذا الرأي: الأستاذ رمضان عبد التواب⁶، وعلي أبو المكارم⁷، وآخرون.

ويتفق المذهبان على أن هاته اللغة الأدبية المشتركة كانت لغة الخاصة من العرب من الخطباء والشعراء، وبها نزل القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف؛ فهي بذلك نموذج لغوي أرقى من لغات العامة.

وأما المستوى اللغوي الثاني -على ما أسلفنا ذكره- وهو مستوى اللهجات باصطلاح المحدثين؛ فهو ما كان يسري على ألسنة الأعراب في حياتهم اليومية، وهو مستوى لغوي أقل فصاحة من الأول، وينماز عن المستوى الأول بخصائص لغوية في الصوت، والكلمة، والتركيب والدلالة، واللهجات المحلية القبلية «عادة ما تستخدم في بيئة خاصة تهم قبيلة واحدة، أو مجموعة من القبائل بينهما صلة القرابة أو الجوار، وفي إطار هذا المجتمع المحدد تصبح اللهجة ذات قيمة كبيرة؛ إذ هي وسيلة أفراد القبيلة في شؤون حياتهم العادية -وما أكثرها- من حيث قضاء مصالحهم، وتفاهمهم عن تلك المصالح، كما تكون وسيلتهم في التسلية والسمر، وإلقاء النواذر والفكاهات»⁸.

4. منشأ القول بوجود مستويين لغويين متباينين في اللغة العربية:

يشوب العلاقة بين العربية الفصحى، ولهجاتها غموض واختلاط عند دارسي العربية من مستشرقين وغيرهم؛ إذ يبقى تفسيرهم للعلاقة بينهما مجرد فروض وتخمينات، ولعل سبب ذلك أن القدامى لم يفصلوا في بيان هاته الصلة تفصيلا دقيقا لا يدع معه مكانا للشك والتخمين.

ومن أهم آراء المستشرقين في هاته المسألة:⁹

أ/ رأي نولدكه (Noldeke): الفروق بين اللهجات العربية القديمة قليلة، والفصحى تعتمد على هذه اللهجات على حد سواء.

ب/ رأي جويدي (Guidi): ذهب إلى أن الفصحى خليط من لهجات نجد والمناطق المجاورة، ولا تمثل لهجة بعينها.

ج/ رأي ناليلو (Nallilo): يربط ظهور العربية الفصحى بمملكة كندة، وأن عاميات قبائل معدّ توخّدت، وكوّنت العربية الفصحى.

د/ رأي فيشر (Fisher): العربية الفصحى تمثل لهجة معيّنة، غير أنه لم يعيّننها.

هـ/ رأي المسترق الألماني فولرز (Follers): أثار شكوكاً كثيرة حول كون اللغة الفصحى منها: اعتبره المعايير المتعارف عليها حول الفصحى شيئاً مصنوعاً من طرف النحاة، ثم جاؤوا بالأدلة عليه، وكذا اصطناع لغة القرآن، لا سيما ما تعلّق منها بإعرابه، ورأى أن الفصحى إنما هي نتيجة لما حاوله العلماء من تغيير النص القرآني حتى يوفقوا بين اللهجات العربية، ورفض تسمية "العربية الفصحى"، واقترح تسميتها بـ"اللغة المكتوبة الأقدم".¹⁰

ح/ رأي بروكلمان وفيتغنشتاين (Wittgenstein): يتفقان على أن العربية الفصحى لم تكن لغة كلام أبداً، غير أنهما لم يناقشا علاقتها باللهجات.

ط/ رأي المستشرق الفرنسي بلاشير: ظهور الفصحى بإزاء اللهجات جاءت نتيجة احتقار اللغويين العرب للهجات، وميلهم إلى توحيد العربية تعسفاً وتمسكاً بصفاتها، ومن ثمة طردهم لقواعدهم ونبذهم لكل ما خرج عنها، يقول بلاشير: «إن نظرية المؤلفين المسلمين [حول العربية الفصحى] هي نظرية جاءت على طريقة المنطقيين، تنطلق من أصل مسبق، وتستنتج منه نتائج تتحوّل [عند العرب] إلى عقيدة صماء في النهاية»¹¹.

ويضيف: «وهذا الأصل قد نصّ عليه في أواسط القرن الثامن (الثاني للهجري) وهو الاعتقاد بوجود معيار لغوي وهو صورة من العربية تمتاز بالصفاء والكمال، ويقابلها خليط من اللهجات، وما هذه اللهجات إلا ما فسّد من هذه اللغة المثالية»¹².

وما يفهم ممّا خفي من كلام بلاشير أن اللهجات جاءت نتيجة الانحراف عن الفصحى بعد عصر التدوين، ما ينفي ارتباطها بواقع الاستعمال اليومي، ولا امتدادها التاريخي إلى ما قبل ذلك العصر.

5. آثار الخلط بين اللغة الأدبية واللهجات في دراسات القدامى من وجهة نظر اللغويين المحدثين:

إيماناً من اللغويين العرب المحدثين باحتواء نصوص المدونة اللغوية العربية التراثية على مستويين لغويين متباينين: الفصحى واللهجات -وعلى الرغم من اختلاف تصوّرهم لطبيعة العلاقة بين الفصحى ولهجاتها بين كونها مجموع اللهجات أم تمثل لهجة بعينها - فقد اتفقوا على أن اللغويين والنحويين القدامى وقعوا في الخلط المنهجي في دراساتهم اللغوية والنحوية، بين مستوى اللغة الأدبية المشتركة ومستوى اللهجات في دراستهم للغة العربية، واعتبروا كليهما ضمن مستوى لغوي واحد موحد الخصائص.

وترتب عن ذلك آثار سلبية ألفت بظلالها على مناحٍ عديدة في مخرجات الفكر النحوي العربي، لعلّ أهمها: اضطراب قواعد النحو حسبهم، وكذا إفقاد المدونة العربية التراثية شرطاً أساساً من شروط المدونة اللغوية الحديثة وهو شرط التجانس، وذلك لاشتغالها على لهجات عربية متعددة، ومحاولة إيجاد نحو عام يجمع شتات تلك اللهجات المتباينة، ناهيك عن الفصحى. وهذا ما ذهب إليه إبراهيم أنيس¹³، ومحمد عيد¹⁴، وعلي أبو المكارم¹⁵، وتام حسان¹⁶، وأحمد مختار عمر¹⁷.

وقد أفاض الأستاذ علي أبو المكارم في عرض آثاره هذا الخلط المنهجي الذي وقع فيه النحاة حين اعتبارهم الفصحى ولهجاتها لغة واحدة "محددة الخصائص، متحدة المستوى"، وهي في أبعادها تكشف حسبه عن فهم خاص للغة وتصور محدّد لها وهو كونها مجموع اللهجات القبلية ذاتها.¹⁸

ويمكن إيجاز نتائج هذا الخلط المنهجي في النقاط الآتية :

1.5- في مستوى الدراسة الصوتية:

أدى الخلط المنهجي بين متسوبي الفصحى ولهجاتها في الدراسة الصوتية-حسب تصوّر علي أبو المكارم- إلى اعتبار الخصائص الصوتية اللهجية -من مثل: الكسكسة والكشكشة والعجفية وما إلى ذلك- ظواهر لغوية تنتمي إلى الفصحى واللهجات على حدّ سواء، ما يحيل على جواز استخدام الظواهر الصوتية اللهجية في الفصحى بنقل ظاهرة الجزء إلى الكل، من حيث كون اللهجات وحدات مكوّنة للفصحى، ما يعني أنه يجوز مثلا في الفصحى زيادة السين على كاف المؤنث وفقاً قياساً على ظاهرة الكسكسة ممّن يقول أهلها: مررت بِكِس. ¹⁹

2.5- في مستوى الصيغ :

وتظهر آثار هذا الخلط في أبواب عديدة منها: في تصريف الأفعال من حيث الاختلاف في حركة عين الفعل الثلاثي بين قريش في الفتح "زهّد" وتميم في الكسر "زهد"، وكذا في حركة حرف المضارعة بين كسره باطّراد في قبيلتي أسد وقيس-فيقولون: تعلم وتعلمون-على حين تفتح به بقية القبائل. يضاف إليه اختلاف المشتقات، والذي يردّ في جانب كبير منه إلى اختلاف التأديت اللهجية لها، ومن ذلك اختلاف صيغ المصادر وصيغ المبالغة واسم المفعول من الفعل الأجوف، وكذا في جموع التكسير، وما إلى ذلك من الظواهر الصّرفية. ²⁰

3.5- التأثير في الدلالة المعجمية

ومظاهر ذلك الخلط المنهجي بارزة-حسب تقدير علي أبو المكارم-في ظاهري الترادف والمشارك اللفظي؛ إذ إنّ مردّد الدلالة المعجمية للمادة الواحدة إنما هو تعدّد دلالتها في مستوى اللهجات، كما أنّ من آثاره تعدد الكلمات والمواد المعجمية ذاتها بسبب التعدد الصوتي للهجات، وهو ما وقف عائفاً كبيراً حسبه أمام وضع معجم تاريخي دقيق للفصحى. ²¹

4.5- التأثير في الجوانب النحوية

وتظهر آثار ذلك الخلط -على رأي علي أبو المكارم- في أكثر أبواب النحو، ولعل أبرزها في: ²²
 *ظاهرة التصرف الإعرابي: من حيث اختلاف العمل في عوامل من مثل: عمل "لا"، ولعل، وإلا، واستعمال حتى حرف جر، وإعراب المثني بالألف والنون، وما إلى ذلك.
 *في ظاهرة التذكير والتأنيث: إذ إن ما يُدكّر على لهجة قد يُؤنّث على أخرى، ومن ثمة يؤثر ذلك في فكرة التطابق بين الفعل والفاعل والصفة والموصوف والإشارة، والأسماء الموصولة .
 *في التطابق العددي: من مثل مطابقة لغة "أكلوني البراغيث" بين الفعل والفاعل من حيث العدد إذا تقدّم الفعل على فاعله، وامتناعه ذلك في لغة عامة العرب، وكذا الاختلاف في ترتيب عناصر الجملة من حيث التقديم والتأخير، ممّا يُردّ في أصله إلى اختلاف اللهجات، ولعلّ غيرها من مظاهر الخلط في تقدير المحدثين كثير.

ونتيجة هذا الخط المزعوم اتجهت دعوات كثير من المحدثين إلى إعادة استقراء التراث، والفصل بين مستوى الفصحى ومستوى اللهجات في صياغة القواعد، بل إن لهذا الادّعاء أبعاداً خطيرة تتجاوز هذه الانتقادات على نحو ما سنفصل فيه تالياً.

6. أبعاد القول بوجود لغة أدبية مشتركة مقابل اللهجات، والخلط بينها في الدراسات اللغوية والنحوية:

إنّ القول بوجود لغة أدبية مشتركة بإزاء لهجات محلية عربية قديمة يلقي بظلاله على جوانب عديدة تطعن في جهود القدامى في خدمة اللغة العربية، والحفاظ عليها؛ إذ هو لا يتوقف عند حقيقة تقرّها اللسانيات الحديثة من أن اختلاف اللغات ضرورة حتمية تفرضها طبيعتها الاجتماعية فحسب، بل إنّ لها أبعاداً أخطر، منها:

أ/ نسبة اللغويين القدامى إلى الجهل، وضعف حسّهم اللغوي في عدم قدرتهم على التمييز بين هذه المستويين اللغويين، بالرغم من أن جهدهم في خدمة لغة القرآن واستقصائها من منابعها مشافهةً وتدويناً عمل جبار، لا يضاهيه عمل على امتداد التاريخ حتى يومنا هذا.

ب/ الطعن في سلامة قواعد النحو التي بنيت -حسبهم- على مستويين لغويين متباينين، ومن ثمة فُسّر الشاذّ، وتضعيف الروايات اللغوية من باب هذا الخلط المنهجي، وعدم التجانس بين نصوص المدونة العربية.

ج/ الطعن في صحة المدونة اللغوية التراثية قياساً بشروط المدونة اللغوية الحديثة، مما يقلّل الاعتماد عليها في العصر الحديث، لا سيما في وضع المعجمات التاريخية، والتيسير النحوي، وبناء الأطالس اللغوية.

د/ إتاحة الفرصة للطاعنين في قواعد القدامى، وأتّامها بالقصور، وعدم مسايرتها للغة العصر، واستغلال مبدأ -اللغة ملك لمن يتكلمها- في نشر دعوى إحلال العاميات محل الفصحى، والتععيد لكل عامية على حدة.

هـ/ التمكين لادّعاءات مغرضة روّج لها مستشرقون كُثُر في الأوساط العلمية العربية-والتي لقيت للأسف آذاناً صاغية- تصل إلى حد الطعن في لغة القرآن -وفي خاصية إعرابه تحديداً- من حيث كونها مصطنعة من قبل النحاة، لا خاصة محايثة للعربية عامة وللغة القرآن بخاصة، وفي هذا من التعسف والتحامل ما لا سبيل إلى قبوله افتراضاً، فكيف إلى إقراره حقيقة؟

ومن ثمة كان لزاماً علينا من الناحية الأخلاقية والعلمية التّثبت في الأحكام، وإعادة النظر في دعوى الخلط المنهجي بين الفصحى ولهجاتها، ناهيك عن إثبات هاته الفكرة الرائجة أو إنكارها، وذلك مسعى عكف عليه مدافعاً الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح، على ما سيأتي تفصيله.

7. اللغة الأدبية المشتركة ولهجاتها من منظور عبد الرحمان الحاج صالح:

يعدّ الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح أن القول بوجود لغة مشتركة بإزاء اللهجات العربية محظ اعتقاد وهمي، انجرف فيه أكثر الباحثين المعاصرين من مستشرقين وعرب. ودرءاً لهذا الوهم عقد الأستاذ الفاضل الباب الثاني من كتابه (السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة) -وسمّه بـ: "اللغة العربية، وأسطورة اللغة المشتركة بإزاء اللهجات العربية"- بسط فيه القول في أسباب ذلك الادّعاء وخلفياته الإيديولوجية والعلمية، ثم حشر الأدلة والبراهين المبطلّة لهذا الاعتقاد الوهمي على حدّ تعبيره.

1.7 أسباب الاعتقاد بوجود لغة مشتركة بإزاء اللهجات، ومنشؤه:

يذكر عبد الرحمان الحاج صالح أنّ القول بوجود لغة أدبية بإزاء لهجات مختلفة الخصائص نقلت من البلدان الغربية إلى الأوساط العربية في عصرنا، وأصل هذا التصوّر ما لاحظته علماء الغرب في الحالة اللغوية لبلاد اليونان قديماً من وجود لهجات محلية ولغة أدبية موحدة سميت عندهم بالـ Koiné، فقاموا بالحالة اللغوية العربية في زمان الفصاحة العفوية على الوضع اللغوي اليوناني، فسمّوا اللغة الفصحى Arabic Koiné.²³

على اعتبار أن اللغة الأدبية اليونانية كانت مختلفة من حيث خصائصها اللغوية عن اللهجات اليونانية القديمة إلى حدّ انتمائهما إلى مستويين لغويين متميزين، وقدّر مثل ذلك في تصوّر العلاقة بين الفصحى ولهجاتها.

كما يردّ الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح هذا الوهم الشائع إلى سببين رئيسين:²⁴

الأول: ورود الشعر والقرآن كليهما وفق لغة موحدة، تمثل بحسب المحدثين مستوى اللغة الأدبية المشتركة، وهي لغة الخاصة.

الثاني: اقتناع المحدثين بوجود لهجات مختلفة من قبيلة إلى أخرى على اتّساع نطاق شبه الجزيرة العربية؛ إسقاطاً منهم لواقع اللهجات العربية الحديثة على اللهجات القديمة، ومن ثمة ترسخت في أذهان الدارسين أن لغة تخاطب القبائل العربية كانت مختلفة عن اللغة الأدبية، ومختلفة باختلاف اللهجات ذاتها، وهو ما وجدناه حقيقة يصحّح بها الأستاذ محمد عيد في اعتباره النظر إلى مستوى اللغة الأدبية ومستوى اللهجات من أن "كل لهجة من لهجات القبائل تمثل بدورها مستوى لغويًا خاصًا متميزًا عن مستوى غيرها من اللهجات من ناحية وعن اللغة الفصحى من ناحية أخرى"²⁵، وهذا الاختلاف يكون في نطق الأصوات والصيغ وتأليف الكلام والإعراب ودلالة الألفاظ، وهذا التمايز نتيجة حتمية صنعها عرف الناطقين للغة أو اللهجة نتيجة التطور الحتمي للغة، وإن كان لا يمكن بحالٍ من الأحوال إلغاء مبدأ التأثير والتأثر بين كل هاته المستويات اللغوية.

وعلى هذا الاعتبار قد ينشأ رأي أكثر تشدداً يقرّ بوجود أكثر من مستويين لغويين في نصوص العربية على اعتبار أن كل لهجة تمثل مستوىً لغويًا متميزًا.

ولكنّه من الجدير التنبيه على فكرة مغلوطة بين كثير من الدارسين وهي: إسقاط واقع اللهجات العربية الحديثة على اللهجات القديمة؛ إذ إن بينهما من الفروق ما يجعل المطابقة بينهما محض وهم؛ فلا الخصوصية المكانية ولا الزمانية، ولا المعطيات اللغوية لكليهما سيّان؛ ذلك أن اللهجات العربية القديمة لم تتجاوز إطار الجغرافي وهو شبه الجزيرة العربية على ترامي أطرافي وتعدّد تخومها، كما أن خصوصية اللسان العربي في ذلك العصر -عصر الفصاحة وقبله العصر الجاهلي- ميّزتها قلّة اختلاط العرب بغيرهم من الأمم، ما يحيل على أن تأثر ألسنة بعضهم ببعض أكبر من تأثير العوامل اللغوية الخارجية، وهو ما يحيل على اتّحاد خصائصها اللغوية إلى حدّ بعيد.

وأما بنزول القرآن، وانتشار العربية خارج بيئتها الجغرافية الأصلية التي ترعرعت فيها منذ مراحل نشأتها الأولى إلى بيئة جديدة مترامية الأطراف في المشرق والمغرب؛ فقد أضفى ذلك طابعاً جديداً على سماتها اللغوية من حيث اتخاذ غير العرب لغة العرب لساناً لهم، ومن هنا عرض للعربية من عوامل التغيير على ألسنة الأعاجم ما كان أحد الأسباب الرئيسة لانحراف

اللسان العربي عن أصوله، وكان نواة لظهور اللهجات الحديثة من حيث الزيغ عن الإعراب والتأثر بالأنظمة اللغوية، ما جعلها تختلف حقاً في جوانب كثيرة خصائص عربية القرآن والشعر، وتشكّل بذلك لهجات متعدّدة في إطار اللغة الواحدة، بخلاف اللهجات العربية القديمة في صلتها بالعربية الفصحى.

2.7- تفسير عبد الرحمان الحاج صالح لطبيعة العلاقة بين الفصحى ولهجاتها:

يصدر الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح في تصوّره للعلاقة بين الفصحى ولهجاتها من قناعة مخالفة تماماً لما يقرّه أكثر الدارسين المحدثين من انتمائهما إلى مستويين لغويين متميزين؛ إذ يعدّ الفصحى ولهجاتها تنتمي إلى مستوى لغوي واحد، وأن فيهما من الخصائص اللغوية المشتركة والموحّدة أكثر ممّا هو موجود من خصائص مميّزة لإحداها عن الأخرى. واللغة العربية -حسبه- لغة واحدة موحّدة في النصوص اللغوية كلّها من القرآن والحديث النبوي والشعر والنثر ولغة التخاطب اليومي.

ويكمن الفرق بين الفصحى ولهجاتها حسبه واقع في بعض وجوه الأداء التي لا تصل إلى حدّ جعلها لهجات مستقلة عن الفصحى.

ولا ينكر الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح وجود مستويات للعربية ككلّ لغة حيّة، لكن الفرق بين اللغة الأدبية ولهجاتها يعود إلى ما تقتضيه اللغة العليا من ترث وتقيّد بضوابط المقام والالتزام التام بالخصائص اللغوية، وبين ما نجده في اللهجات من التخفيف والاسترسال، وعلى هذا فقد فسّر الأستاذ وجود مستويين في اللغة العربية على النحو الآتي:²⁶

أ/ التعبير الاسترسالي: الذي يظهر على ألسنة العرب في حديثهم اليومي ومخاطباتهم، وتبرز فيه ظواهر: الاختزال والحذف والإدغام والاختلاس، وهو ما يسمى بالإدراج. وقد سُجّلت مثل هذه الظواهر أيضاً في القراءات القرآنية لارتباطها باللهجات. ولعل أسباب اتصافها بتلك الأوصاف كونها أكثر استعمالاً، ما ينبغي أن تكون أخف على الألسنة، كما أنها أقل تكلفاً من لغة الخاصة.

ب/ التعبير الإجلالي: -وإنما اختار هذا الاصطلاح تليّياً للغة القرآن على لغة الشعر والنثر اعتباراً بجرمة المقام وقديسيّة كلام الله ولغته- وهو ما ميّز لغة القرآن والشعر، وكذا الفنون المخصوصة من القول كالخطابة والأمثال والحكم من ظواهر الإتمام والتحقّق والبيان وفي القرآن الترتيل.

ويفسّر الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح اصطلاح "اللغة" الذي عبّر به القدامى عمّا رصدوه من ظاهر لغوية بين القبائل العربية على أنها لا تقابل قطعاً اصطلاح اللهجة بدلالاتها الحديثة التي تعبّر عن الألسنة المحليّة، وإنّما أقصى ما تدلّ عليه هو: "طريقة استعمال جميع العرب أو أكثرهم أو كثير منهم أو أفراد قلائل منهم لوحدة من وحدات العربيّة على اختلاف مستوياتها".²⁷ ومن ثمة فهي من حيث الكم لا ترتقي لأن تكون لهجة مستقلة تمام الاستقلال عن غيرها من اللغات العربية؛ إذ إن ما تتفق فيه اللهجات العربية القديمة من خصائص صوتية وصرفية وتركيبية أكثر ممّا تختلف فيه.

3.7- أدلة الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح إثبات اعتبار الفصحى ولهجاتها لغة موحدة الخصائص:

لم يصدر الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح في رأيه المخالف لرأي أكثر الدارسين المحدثين من مجرد هوى أو رأي، أو رغبة في التميز، بل إنه خلص إلى هذا الرأي بعد جهد جهيد، حشر فيه من الأدلة والبراهين، والإحصاءات الدقيقة ما أعطى رأيه مصداقية علمية، يترجح وفقها ما خلص إليه من إنكار وجود لغة أدبية مشتركة بإزاء اللهجات العربية. وفيما يلي عرض لأهم أدلته مختصرة.

أولاً: شهادة القرآن الكريم التاريخية:

أكد القرآن الكريم في غير موضع من آياته أنه إنما نزل بلسان عربي مبين، من ذلك قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف/12]، ثم مناسبة ذلك مع نصّه الصريح على أنه ما أرسل من رسول إلا بلسان قومه. ومع تسليمنا بالإعجاز اللغوي للقرآن، ودقّة نظمه، ومقصودية أوصافه؛ فاختيار لفظ "العربي" وصفاً للغة الذكر الحكيم دليل على أنّ القرآن كان يخاطب العرب بلغتهم جميعاً، وأن هذه اللغة هي لغة جميع العرب في ذلك الزمان، ولم تكن لغة محلية خاصة بقبيلة بعينها، ولا خاصة بالشعر، فلسان القرآن العربيّ الفصيح يفهمه كل العرب، وبالتالي يتخاطبون به جميعاً²⁸.

كما أن وصف لسان القرآن بالمبين هو دليل آخر على أنه يبين لفهم عامة العرب، أم كيف يوصف بذلك إن كان مخصوصاً بمستوى لغويّ أرفع من لغة العامة، خاصاً بالشعر لا يستعمله العرب في مخاطبتهم وحياتهم اليومية، منفصلاً تمام الانفصال عما ألفه منطقتهم؟

يضاف إلى ذلك أن تحديّ العرب على أن يأتوا بمثل ولو آية من القرآن وعجزهم عن ذلك دليل آخر على أن لغة القرآن لا تختلف عن لغة عامة العرب؛ إذ من غير المنطقي أن يتحدّى القرآن العرب بغير لغة يتخاطبون بها؛ ففي ذلك مجال لدفع صفة الإعجاز عنه لارتقاء لغته عن لغة العامة، ما يعني استحالة إتيانهم بمثله طالما أنه في مستوى لغويّ مُميّز للغة العرب.

ثانياً: معنى "اللغة" في زمان سيبويه:

يتواتر في كتب اللغة والنحو التراثيين اصطلاح "لغة" من مثل لغة قيس، ولغة تميم، وما إلى ذلك. وعدّ المحدثون أنّ مدلولها عند القدماء يقابل ما يصطلح عليه حديثاً باللهجة "dialecte"، والتي تحيل على الألسنة المحلية، المختلفة الخصائص في إطار اللغة الواحدة.

غير أنّ ما يضعف هذا الاعتقاد دلائل أهمها: أن تكرار لفظة "لغة" في كتب سيبويه مع تعدّد سياقاتها تدلّ عموماً على "كيفية خاصة في استعمال العرب أو جماعة منهم لعنصر خاص من عناصر العربية"²⁹ سواء في الصوت أو اللفظ أو التركيب، ولا يعني لهجة بأكملها أي على لسان خاص بقبيلة أو بإقليم.

وقد استدلل الأستاذ بأدلة من كتاب سيبويه خلّص بعدها إلى أنّ نحاة العرب منذ عهد سيبويه وأصحابه "يجعلون من العربية لساناً واحداً، فيه تنوع في داخله لهجياً كان أو غير لهجي، ويسمّون كلّ تنوع لغويّ على حده "لغة" مهما كان، ولم يصحّوا أبداً بأنّ هذا التنوع يُكوّن كياناً لغوياً منفصلاً عن العربية، أي لم يُشيروا في أيّ وقتٍ من الأوقات إلى وجود لهجاتٍ لا تصلح إلا للتخاطب العاديّ من جهة، ووجود لغة أدبية مشتركة من جهة أخرى بإزاء هذه اللهجات"³⁰.

ومع ذلك، لا يمكن إنكار وجود مجموعات من الخصائص اللّهجية التي ميّزت قبيلةً من أخرى، وكلّ إقليم في شبه الجزيرة في عصر الفصحى، وذلك ما اعتنى اللغويون والنُّحاة بوصفه الوصف الدقيق.³¹

ثالثاً: حقيقة اللّهجات العربية وحصول التفاهم بين الناطقين بها:

إنّ مقابلة لغات العرب قديماً باللّهجات الحديثة (Dialecte) من حيث كون اللّهجة قد تكون شديدة التباين بالنسبة لغيرها من اللّهجات قياساً بنظيرتها من نفس اللّغة - حتى يستحيل التفاهم بين الناطقين بها وغيرهم من الناطقين بلهجات اللّغة ذاتها - لا يصدق على لغات العرب؛ ذلك أنّه لم ينقل عن العرب والأعراب القدامى استحالة التفاهم بينهم بسبب الاختلاف اللّهجي، وأقصى ما في الأمر أنّ ثمة تبايناً في الأصوات والمفردات من حيث صيغها أو مدلولها، وقد ذكروا اللغويون والنحاة عدداً قليلاً من المفردات التي اختصت بها قبيلة دون أخرى قياساً بالعدد الذي لا يُحصى من المفردات التي يتفق العرب فيها.³² ما يعني أنّ مظاهر الاتفاق بين اللّهجات العربية أكثر من مظاهر الاختلاف.

رابعاً: قول سيبويه، وزملائه: "ومثل ذلك في القرآن، أو الشعر، أو الكلام كثير":

إنّ المطلع على كتاب سيبويه يلحظ اجتهاده في التمثيل لكل خاصية لغوية أو صفة بشاهد من كلام العرب ينطلق منه، ثم يعقبه بقوله: "ومثل ذلك في القرآن كثير"³³، أو: "ومثل ذلك في الشعر"³⁴، وفي هذا دليل على التوافق بين لغات العرب ولغة القرآن والشعر؛ إذ لو كانا ينتميان إلى مستويين لغويين متباينين لما سهل عليه الظفر بلا عناء في تحصيل كل تلك الشواهد، والنص على كثرتها في كل نص لغوي، وهذا دليل على وحدة اللغة العربية في ذلك الزمان.³⁵

خامساً: اللغات في القراءات والشعر العربي:

قراءات القرآن الكريم دليل آخر على أنّ "اللغات" جزء لا يتجزأ من العربية، وعلى هذا فلغة التخاطب ولغة القرآن شيء واحد .

فالمعلوم أنّ القراءات القرآنية نشأت مرتبطة باللّهجات العربية قصد التيسير على العرب الذين كانت لغاتهم مختلفة وألسنتهم شتى. فلو كانت القراءات تمثل مستوى لغوياً مختلفاً من مستوى العربية التي نزل بها القرآن لكان فيها تحريفاً للغة القرآن، وانحطاطاً بها إلى ما دون التنزيل، وفي ذلك تعسف وتعدّي على قدسيّة القرآن، وإنكار لحقيقة حفظه من لدنه تعالى، ما يقتضي بالضرورة أن اللّهجات التي جاءت وفقها القراءات القرآنية ولغة القرآن في مستوى لغوي واحد، وأن كل ما تضمّنته القراءات من اختلافات لا يعدو أن يكون خصائص لغوية محلية أو لهجية، أو غير لهجية لا تنفصل البتة عن لغة القرآن التي نزل بها.

وأما ما يتعلّق باللغات في الشعر: فإن القول بأن الشعر نظم وفق اللغة الأدبية المشتركة، ونفي احتوائه على لغات العرب أبعد ما يكون عن الواقع، بل إن شواهد اللغات في الشعر أكثر من أن تحصى. ويكفي الاطلاع على بعض كتب اللغة والنحو من مثل كتاب النوادر لأبي زيد للتثبت من هاته الحقيقة البينة للبيان، إذ لا توجد أية لغة في كتب اللغة والنحو إلّا ولها شاهد من الشعر، زيادة على الشواهد من كلام العرب.³⁶

سادساً: الأدلة الإحصائية:

إضافة إلى الاستدلالات العقلية والنقلية التي أوردها الأستاذ "عبد الرحمن الحاج صالح" في ردّ دعوى وجود لغة أدبية مشتركة بإزاء لهجات عربية محلية، فقد أفاض في تقديم أدلة إحصائية رجّح من خلالها رأيه في نفي زعم المحدثين، وشمل ذلك الإحصاء:

أ/ إحصاء اللغات في القرآن الكريم:

والمقصود بلغات القرآن: اللغة من حيث هي استعمال خاص، أو عام لعنصر لغوي واحد أو ما يتّصف به، سواء أكان كلمة، أو صيغتها، أو مدلولها أو تركيباً، أو إعراباً، أو مخرج صوت، وما إلى ذلك.³⁷

✓ المستوى الإفرادي: وقد استند الأستاذ في إحصاء مفردات القرآن إلى كتاب "رسالة فيما ورد في القرآن من لغات القبائل"، والذي تطرّق فيه صاحبه إلى مفردات القرآن مع نسبتها إلى قبائل مختلفة، فأحصى -من متن الكتاب- خمساً وثلاثين قبيلة ومائتين وثلاثاً وثمانين مفردة لهجيّة، والنتيجة أنّ ثمة 285 مفردة وردت في القرآن تتوزع على لغات العرب، مقابل العدد الكبير المشترك بين لغات العرب من المفردات الذي يحتوي عليها النصّ القرآني، والتي قدّرت بين 77.436 و 77.499 مفردة.

وحتى وإن كان هذا الحصر ناقصاً، فإنّه لا ينفي البتة أنّ أكثر ألفاظ القرآن مشترك بين قبائل العرب ولغاتها "فهذا العدد الهائل من المفردات الذي لا ينفرد باستعماله أي قوم من العرب يكون بالفعل اللغة المشتركة بين جميع العرب وهو ما قصده سبحانه وتعالى بقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾".³⁸

✓ المستوى الصرفي والنحوي في لغات القرآن:³⁹ استند الأستاذ "عبد الرحمن الحاج صالح" إلى كتاب "معاني القرآن" للفراء في رصد التّنوعات الصرفية والنحوية في لغات القرآن، مع نسبتها إلى أهلها من العرب، وخلص -بعد إحصاء دقيق وجهده محمود- إلى أنّ مجموع اللّغات الصرفية النحوية في القرآن هي 98 لغة، مع بعض اللّغات الضئيلة التي لم يورده الفراء، والتي مهما كان تعدادها فإنّه يعدّ قليلاً جدّاً قياساً بما هو مشترك بين لغات العرب ممّا ورد منها في القرآن عامة.

ب/ إحصاء اللغات في معجم "لسان العرب"، وما جاء في كتاب "لهجات الفصحى" من الوحدات اللهجية:

عمد الأستاذ "عبد الرحمن الحاج صالح" إلى إحصاء ما سُمّي باللغات في مجموع المفردات العربية، واستند في ذلك إلى معجم لسان العرب "لابن منظور" -بعده أضخم المعجمات العربية وأكثرها شمولاً لاحتوائه جهود من سبقه من المعجميين- وكتاب حديث هو "المعجم الكامل في لهجات الفصحى" لداود سلوم. ويضم المرجعان على حدّ سواء المستويات اللّغوية المتعددة فيما ينسب إلى لغات العرب من صوت وبناء كلمة وتركيب، أو فيما لا ينسب منه -وهو في الغالب أداء مبعثر في شبه جزيرة العرب قديماً- مع عدّ المؤلّفين الدّخيل والمولّد والعامي لغة كذلك.

وبعد إحصاء وتحليل وعمل علمي دقيق، خلص الأستاذ إلى أنّ المفردات أو الطّواهر اللّغوية التي عدّها القدامى "لغات" لا تتجاوز في العيّنة المدروسة من "لسان العرب" -وغير بعيد عنه في كتاب "لهجات الفصحى" -نسبة 1.4% إلى 4% من مجموع الوحدات المعجمية المدروسة منسوبة إلى لغات أو لهجات عربية، قياساً بالأغلبية الساحقة لما هو

مندرج منها ضمن ما اتفقت على استعماله سائر اللّغات، وهذا يحيل على حقيقة جليّة مفادها: أنّ ما لم يطلق عليه اسم "لغة" يمثل اللّغة المشتركة بين جميع العرب.

ولا يعقل أن يكون المجموع الغالب خاصّاً باللّغة الأدبية المشتركة المزعومة، وتكون النسبة الضئيلة موزّعة على العناصر اللّهجية؛ ذلك أننا إن أخذنا بمفهوم اللهجة باصطلاح المحدثين؛ فإنّ الوحدات المحصاة لا يمكن أن تغطي احتياجات المتكلمين العرب اليومية، ما يستلزم ضرورة أنّ هذه القلّة المتجلية في الظواهر اللّهجية "تستلزم أن يكون لكل قبيلة قدر مشترك كبير من الألفاظ مع غيرها من القبائل ليغطي حاجات الحياة العامة".⁴⁰

ج/ توافق البنية التركيبية باطّراد بين لغة التّخاطب القديمة ولغة القرآن ولغة الشعر.

عمد الأستاذ "عبد الرحمن الحاج صالح" إلى عرض أكثر الأنماط التركيبية شيوعاً في العربية من حيث الأعمال والإهمال والتّعدي والتنازع الواردة في كتاب سيبويه، وقارن بين ما جاء منها مطّرداً استعمالاً وقياساً وفيه ضرب واحد من كلام العرب وفي القرآن، وبين ما لم يطّرد من هاته الظواهر التركيبية وتعدّدت أضربه في كلام العرب، وخلص إلى "اطّراد التّوافق بين لغة القرآن ولغة الشعر ولغة التّخاطب من حيث النظام النحوي التركيبي".⁴¹

وما سجّل من ظواهر تركيبية شاذة من مثل لغة "أكلوني البراغيث" وإلزام المثني الألف والنون في كلّ الحالات الإعرابية على لغة بني الحارث بن كعب، فهي قليلة قياساً بالمطّرد منها. وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ الظواهر التركيبية بين لغة القرآن والشعر من جهة ولغات العرب من جهة أخرى فيها من مظاهر التّوافق ما يضعف فكرة انتمائها إلى مستويين لغويين متباينين تمام التّباين.

وهذا الشّدوذ في الظواهر اللّغوية العربية لا يُعَدُّ في سائر اللّغات الإنسانيّة، فله نظير في الفرنسية والإنجليزية في باب الجموع، وتصريف الأفعال المنتظمة وغير المنتظمة، وظواهر أخرى غيرها، ومع ذلك لم يُعز ذلك الانقسام اللّغوي لهاتين اللّغتين كما عُزّي إلى اللّغة العربية.

هذا وقد أفاض الأستاذ في عرض الظواهر الصّوتية المنسوبة والصّرفية المختلف فيها، من مثل نظام الفعل الثلاثي المجرد والمزيد ونظام المصادر والمشتقات والتذكير والتأنيث وجموع التّكسير، وخُصّ بعد جهد معتبر إلى أنّ كلّ ذلك لا يكون مجموعات منتظمة من الخاصيات اللّغوية التي تختصّ بها قبيلة واحدة أو بطن، فلا يتجاوز بالنسبة إلى كل قبيلة أو بطن عدداً قليلاً من الخاصيات، وقد لا تخصّ إلّا بعض الكلمات ولا تنطبق على جميع ما يحتوي عليه الباب بالنسبة إلى كل قبيلة مأخوذة على حدة، فأقصى ما يمكن أن يعزّ به عن هذه المميزات أنّها تنوعات لغوية للسان الواحد، لا تكفي لتكوّن لهجة بالمدلول المتفق عليه في زماننا.⁴²

واستناداً إلى ما أوجزناه من أدلة الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح فإنّه لا يسعنا إلا أن نسلم مطمئنين إلى ترجيح رأيه في اعتبار الفصحى ولهجاتها لغة واحدة متّحدة الخصائص إلى حدّ بعيد، وبكفينا دليلاً الثقة في جهود علمائنا القدامى "إذ لم يصرّحوا على الإطلاق أنّ الفصحى لغة أدبية محضة، لا يستعملها العرب إلّا في تعبيرهم الأدبي، وأن ما كانوا يتخاطبون به هو لهجات قبلية مختلفة، وكيف يمكن أن يسكتوا عن هذا وقد عاشوا هؤلاء العرب وشافههم، وسألهم، واستمعوا إليهم، ولا حظوا في استعمالهم كلّ دقيقة، وسجّلوا كل هذا، ولم يكونوا من الأغبياء".⁴³

8. خاتمة:

- انطلق المقال من بحث علاقة الفصحى ولهجاتها من مبدأ أنّ أكثر الدارسين المحدثين يعدّونهما يمثلان مستويين لغويين متميّزين في الجانب الصوتي والصرفي والتركيب، مع التفصيل في موقف الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح المنكر لذلك القول، وكذا بعرض أدلته في ترجيح اعتبار الفصحى ولهجاتها لغة واحدة، موحدة الخصائص. وخلصنا إلى نتائج أهمّها:
- 1- أضحي القول باعتبار الفصحى ولهجاتها من مستويين لغويين متميّزين أشبه بالمسلمة في الدراسات اللغوية الحديثة .
 - 2- يصدر المحدثون في موقفهم إزاء صلة الفصحى ولهجاتها إمّا من تأثرهم بآراء المستشرقين، أو إسقاطاً للواقع اللغوي للهجات العربية الحديثة على اللهجات القديمة، هو إسقاط يتنافى مع الخصوصية المكانية والزمنية لكل لهجة على حده .
 - 3- للإقرار بوجود لغة فصحى متميزة عن اللهجات أبعاد خطيرة، تطعن في جهود اللغويين والنحويين القدامى وتسهم بالجهل، أو التجاهل، زيادة على أبعاد إيديولوجية مغرضة من قبل بعض المستشرقين تصل إلى حدّ الطعن في لغة القرآن، وادّعاء اصطناعها .
 - 4- يتأسس موقف الأستاذ "عبد الرحمن الحاج صالح" المخالف لرأي الأكثرين في الإقرار باتّخاذ الفصحى ولهجاتها إلى أدلة عقلية وعقلية وإحصائية ترفع صحة ما أقرّه، وإن كان شاذّاً قياساً بما هو شائع .
- ولذلك، واستناداً إلى قناعتنا بما أدلى به الأستاذ "عبد الرحمن الحاج صالح" في هاته المسألة اللغوية المهمة من إسقاط دعوى وجود لغة أدبية مشتركة بإزاء لهجات متميزة عنها، فإنّه من الجدير -بل من الواجب العلمي والأخلاقي تجاه تراثنا- العمل على تصحيح ذلك الاعتقاد، ونشره بين أوساط الدارسين المعاصرين، لئلا يستمر الإجحاف في حقّ من بذلوا ما وسعهم الجهد والدّهر في خدمة لغة القرآن وحمايتها من اللّحن كي نؤسس لمسلمة أحق بالصواب وهي: أنّ اللغة الأدبية المشتركة بإزاء لهجاتها محض أسطورة ووهم لا غير.

9. الهوامش:

- ¹ ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، وسنن العرب في كلامها، تح: عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص 56، 57.
- ² ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، ص 55.
- ³ الجاحظ: البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د. ط)، (د. س)، 212/3، 213.
- ⁴ ينظر: علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، نضضة مصر، القاهرة، مصر، ط3، 2004، ص 87. 90.
- ⁵ ينظر: صبحي الصالح: فقه اللغة في الكتب العربية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط11، 1986، ص 109.
- ⁶ ينظر: رمضان عبد التواب، فصول في فقه اللغة، ص 118.
- ⁷ و: محمد عيد، المستوى اللغوي للفصحى واللهجات ولغة الشعر والنثر، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1981، ص 55.
- ⁸ علي أبو المكارم: تقويم الفكر النحوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط1، 1975، ص 157.
- ⁸ مر، ن، ص 57.

- ⁹ ينظر: رمضان عبد التواب، فصول في فقه اللغة، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط6، 1999، ص76.
- ¹⁰ ينظر: ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي "العصر الجاهلي"، تر: إبراهيم كيلاني، دار الفكر، دمشق، سوريا، (د. ط)، (د. س)، ص 234، 235.
- و: عبد الرحمان الحاج صالح: السماع اللغوي العلمي عند العرب، ومفهوم الفصاحة، موفم للنشر، الجزائر، ط2012، ص: 212 [بالهامش].
- ¹¹ ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي "العصر الجاهلي"، ص 70.
- ¹² مر، ن، ص، ن.
- ¹³ إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط3، 1966، ص 22، 23.
- ¹⁴ محمد عيد: المستوى اللغوي للفصحى واللهجات ولغة النثر والشعر، ص 126، 127.
- ¹⁵ ينظر: علي أبو المكارم: تقويم الفكر النحوي، ص157.
- ¹⁶ ينظر: تمام حسان: اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط2001، ص 84.
- ¹⁷ ينظر: أحمد مختار عمر: البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط4، 1982، ص: 55.
- ¹⁸ ينظر: ينظر: علي أبو المكارم: تقويم الفكر النحوي، ص 157.
- ¹⁹ ينظر: مر. ن، ص 161، 162.
- ²⁰ ينظر: مر. ن، ص 170-172.
- ²¹ ينظر: مر. ن، ص 173.
- ²² ينظر: مر. ن، ص 174-190.
- ²³ ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح: السماع اللغوي العلمي، ومفهوم الفصاحة، ص 147.
- ²⁴ ينظر: مر. ن، ص 147.
- ²⁵ محمد عيد، المستوى اللغوي للفصحى واللهجات ولغة الشعر والنثر، ص 58.
- ²⁶ ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر، ط2007، 64/1.
- ²⁷ ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح: السماع اللغوي العلمي عند العرب، ومفهوم الفصاحة، ص 154.
- ²⁸ ينظر: مر. ن، ص 152.
- ²⁹ ينظر: مر. ن، ص 154.
- ³⁰ ينظر: مر. ن، ص 160.
- ³¹ ينظر: مر. ن، ص 160.
- ³² ينظر: مر. ن، ص 201.
- ³³ ينظر: سيبويه: الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط3، 1988، 339 / 1.
- ³⁴ ينظر: مص. ن، 3 / 30.
- ³⁵ ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح: السماع اللغوي العلمي عند العرب، ومفهوم الفصاحة، ص 167.
- ³⁶ ينظر: مر. ن، ص 168-170.

³⁷ ينظر: مر. ن، ص 201³⁸ ينظر: مر. ن، ص 204³⁹ ينظر: مر. ن، ص 209-212.⁴⁰ ينظر: مر. ن، ص 214، 215.⁴¹ ينظر: مر. ن، ص 225.⁴² ينظر: مر. ن، ص 248.⁴³ ينظر: مر. ن، ص 195.**10. قائمة المراجع:**

- (1) إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط3، 1966.
- (2) أحمد مختار عمر: البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط4، 1982
- (3) تمام حسان: اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط2001.
- (4) الجاحظ: البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د. ط)، (د. س).
- (5) رمضان عبد التواب، فصول في فقه اللغة، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط6، 1999.
- (6) ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي "العصر الجاهلي"، تر: إبراهيم كيلاوي، دار الفكر، دمشق، سوريا، (د. ط)، (د. س).
- (7) سبويه: الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط3، 1988.
- (8) صبحي الصالح: فقه اللغة في الكتب العربية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط11، 1986.
- (9) عبد الرحمان الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر، ط2007
- (10) عبد الرحمان الحاج صالح: السماع اللغوي العلمي عند العرب، ومفهوم الفصاحة، موفم للنشر، الجزائر، ط2012.
- (11) علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، نخضة مصر، القاهرة، مصر، ط3، 2004.
- (12) علي أبو المكارم: تقويم الفكر النحوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط1، 1975.
- (13) محمد عيد، المستوى اللغوي للفصحى ولهجات ولغة الشعر والنثر، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1981.
- (14) ابن فارس، الصاحي في فقه اللغة، وسنن العرب في كلامها، تح: عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط1، 1993.